أثرُ التغيُّرات الاجتماعيّة في النظام اللغويّ العربيّ

أ.د. سعدون أحمد علي

الملخص:

توصف اللغة بالتغيّر والتبدّل لارتباطها بحياة أفراد المجتمع الذي يتكلم بها، ولا شك في أن هؤلاء تتبدل أحوالهم وتتغير، فيؤثر ذلك في لغتهم، ويجد طريقه إلى الألفاظ والتراكيب التي يتداولونها في اتصالهم ويعبرون بها عن أحوالهم وحاجاتهم. على أنَّ علماء العربية القدماء – بوسائلهم المحدودة - وقفوا على هذه الظاهرة، فرصدوها ودرسوا أنماطها، وأصدروا فيها أحكاما انمازت بالدقة والعمق، ووسموا هذا التغير بأنه إيجابيٌّ تارة وسلبيٌّ تارة أخرى، وهذا ما أقرَّ لهم به علماء اللغة المحدثون. وهذا البحث محاولة جادة لرصد أثر التغيرات الاجتماعية في النظام اللغويّ العربيّ في مستويات الصوت والكتابة والدلالة من أجل توجيه عملية التغير لإحداث تنمية لغوية عربية حقيقية مقصودة على وفق خطة علمية مدروسة وموضوعية يضطلع بها المتخصصون بعلوم العربية بما يلبي طموح مجتمعاتنا المعاصرة، ويحافظ على هوية لغتنا العربية كونها إحدى اللغات الخمس المعترف بها عالميا، ويدفع عنها خطر العولمة والتغريب والاضمحلال. ومن أجل بلوغ هذا الهدف السامي ينبغي لنا أن نفكر بوسائل حيوية تستند إلى المناهج العلمية الحديثة للحفاظ على خصائص هويتنا اللغوية وسمات شخصيتها الحضارية، وتنميتها وتطويرها وتيسير تعليمها، وتكميم دعوات تغريبها، ودفع طاقاتها للإبداع واللحاق بالأمم المتقدمة؛ منها استحداث الجديد اللغوي مما بالمجتمعات العربية المعاصرة حاجة إليه بالاشتقاق أوالقياس أوالتعريب أو النحت، وتحديث مناهج التعليم وطرائقه في كل المراحل وإدخال التقنيات الحديثة فيه، وسبر غور المعجمات لنفض الغبار عما تزخر به من الألفاظ غير المستعملة التي تزيد على الخمسة ملايين كلمة وإعادة الحياة إليها وإثرائها بالمصطلحات العلمية والأدبية والتقنية والفنية بدلا من أن نفتح الباب على مصراعيه لدخول الألفاظ الأعجمية.

التمهيد: التغيُّر الاجتماعيّ والنظام اللغويّ، نظرة تعريفية

التغيّر الاجتماعي:

هو كلّ تحوّل أو تبدّل موقوت يصيب المجتمعات ويؤثر في بنائها الاجتماعي ونظامها اللغوي ومنظومتها القيمية والأخلاقية، ويؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب أغلب جوانب الحياة، وتفضي إلى تكيّف الأفراد والجماعات وتفاعلهم وتوافقهم بدرجات متفاوتة (١). وقد يكون أثر هذا التغيُّر إيجابيًا مثل مشاريع محو الأمية في البلدان العربية التي تفضي إلى تعرُّفِ قوانين النظام اللغويّ وتطبيقها في الحياة العامة، وقد يكون أثره سلبيًّا، مثل مشاريع تغريب العربية، ودعوات استبدال الحرف الإنجليزي بالحرف العربي، لما في ذلك من طمس لمعالم لغتنا العربية وهجران لها في الاستعمال اليومي.

النظام اللغويّ:

هو استعمال الألفاظ والتراكيب اللغوية للتعبير عن المعاني الذهنية بما يحقق التواصل بين أبناء المجتمعات. ويتألف نظام اللغة العربيّة من ثلاثة أبعاد أساسية، أولها: البعد الموضوعي، ويشتمل على مستويات: الصوت، والصرف، والنحو، والدلالة، والكتابة، والأسلوب؛ إذ تعبِّر اللغة عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة مستمدة من مادة العربية، جارية على وفق نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي. والبعد الثاني: البعد الوظيفي، ويشتمل على مهارات : الاستماع، والقراءة، والتعبير. والبعد الثالث: البعد التكاملي، وتتضافر فيه عناصر البعدينِ المذكورَيْنِ آنفًا لتحقيق المعرفة باللغة (٢).

لقد بذل علماء اللغة جهودًا كبيرة في دراسة لغات الأمم والشعوب والكشف عن أصولها وخصائصها وقوانينها وسمات كلّ لغة منها وتصنيفها إلى أسر وأرومات، وتتبع مظاهر تطورها كونها تتصف بالتجدُّد والتغيُّر لارتباطها بحياة المجتمعات التي تتكلم بها، ولا شك في أن هؤلاء تتبدل أحوالهم وتتغير، فيؤثر ذلك في لغتهم، ويجد طريقه إلى الألفاظ

والتراكيب التي يعبرون بها عن أحوالهم ومتطلباتهم.

إنَّ تحول المجتمعات العربية من حال إلى حال، تبعه تحوُّلٌ في سلوك الأفراد والجماعات، وتغيّرٌ في ثقافتهم وأفكارهم امتدَّ أثرُه إلى لغتهم فأصابَها شيء من التبدّل والتغيّر، لاسيما في نطق بعض الأصوات وكتابتها ودلالات بعض الألفاظ ومعانيها، في حين أن بناءها وتنظيمها لم يصبْه تبدلٌ جوهريّ؛ لأنّ نظامها اللغوي قد استوى على سوقه وقطع شوطا بعيدًا من النضج والتكامل منذ عهود الجاهلية وحتى عصر الإسلام، ما جعلها تستجيب للتغيرات الاجتماعية المتمثلة بمنظومة القيم والمثل، والأفكار، والقوانين، والسلوكيات، فتولِّد بقدراتها الذاتية ألفاظًا تلبّي ما بها من حاجة لتصبح فيما بعد جزءا متداولا من كيانها العام، يؤدي دوره في التعبير والتواصل. ولم تتوقف آثار تلك التغيرات على ما يبتكرُ من الألفاظ والمفردات في كيان اللغة نفسها فحسب، بل تعدَّتها إلى ألفاظ أعجمية عُرِّبت وأُخضِعت لقياس العربية ومنطقها وقوانينها حتى صارت من اللغة العربية وقُطعت صلتها بلغتها الأم (٣).

المبحث الأول: أثر التغيُّرات الاجتماعية في النظام اللغوي العربيّ على مستوى الأصوات

إنَّ الراصد لأثر التغيرات الاجتماعية في النظام اللغوي العربي يدرك تماما أنَّ ما أصاب لغتنا العربية في أصواتها من تبدل وتغير لايعدو بضعة أصوات من حيث التبدلات الصوتية التي حصلت لبعضها كأصوات الضاد والقاف والجيم، أو التغيرات الجزئية في صفات بعضها كصوتي الهمزة والطاء، ويرجع حصول مثل هذه التبدلات إلى قوانين التطور الصوتي التي تتسم بعدم الثبات طوال تطور لغة من اللغات(٤)، ومع أن المجتمع العربي قد تحول من مجتمع القبيلة والقيم الجاهلية إلى مجتمع تسوده قيم إسلامية جديدة شملت جوانبَ الحياة كلّها، نلفي أصوات العربية الفصحى قد حافظت على أصالتها بنسبة كبيرة، وثبتت على ما كانت عليه عند العرب قبل الاسلام، على أنَّ ما حصل في نظامها الصوتي من تغير أو تبدل لم يكن شيئًا ذا بال، ولعل أوضح صوت حصل فيه تغيّر ملموس بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم هو صوت (الضاد)(٥)الذي صار ينطق (ظاء)، وقد تنبه لذلك عدد من علمائنا، منهم أبو عبدالله الداني(ق٥ه)، وابن السيد البطليوسي(ت٥٢١ه)، وأبو البركات الأنباري(ت٥٧٧هـ)، ومحمد بن نشوان الحميري(٦١٠هـ)، وابن مالك الأندلسي(٦٧٢ه)، وبرهان الدين الجعبري(٧٣٢ه)، وأبو حيان النحوي الأندلسي(٧٤٥ه)، وآخرون، فألفوا في التفريق بين الصوتين كُتُبا ومصنفات (٦).

إنَّ شيوع صوت بتبدل نطقه عما كان له في أصل الوضع، بأثر من الازدواج اللغوي، أو بانتقاله من لغة إلى أخرى، لهو صورة حيَّة لتأثر الألسنة وتغيرها، من ذلك شيوع تبدل صوت (الظاء) في لغة مصر وسوريا ولبنان إلى (الزاي المفخمة) بسبب تأثر هذه البلدان باللغتين التركية والفارسية، إذ يقولون: (زريف) و(زلم) بدلا من (ظريف) و(ظلم). وينطقون (الضاد) دالًا أو زايًا مفخمة، فيقولون: (ديف) في ضيف، و(زابط) في ضابط ويُبدلُون بالذال دالًا فيقولون: (الدهب) و(الدقن) بدلا من الذهب والذقن، على أنّ لهذا الإبدال الأخير آثارًا في لغة البغداديين، نقل ذلك عنهم الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، فقال: ((ويقول أهل بغداد : في دقنِك أي في لحيتك))(٧). وجميع هذه التبدلات الصوتية قد جاءت نتيجة لتعدد اللهجات العربية فضلا عن تأثير الشعوب غير العربية في اللسان العربي(٨) .

إنَّ هذه التبدلات الصوتية المحدودة لا تمثل النظام اللغوي الرئيس للغتنا العربية، ولا أصواتها التي استقرت عليها في اللسان الفصيح الذي انتقل إلينا في لغة القرآن الكريم، ولغة الشعر العربي في عصر الاحتجاج، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب الفصحاء على مدى تأريخها الطويل. ومن ثمَّ فالعربي- اليومَ- إنْ أراد أنْ يتكلم اللغة الفصحى، فإن نطقه بهذه الحروف وغيرها لايختلف عن الأعرابي الفصيح في عصر صدر الإسلام وما سبقه، ويرجع الفضل في ثبات أصوات العربية عموما في لسان المتكلمين بها في مختلف العصور إلى كتاب الله الحافظ لها، قال تعالى ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [سورة الحجر:٩]، وفي ذلك يقول الدكتور صبحي الصالح: ((والقرآن الكريم بإيجاب ترتيله على نحو خاص كان السبب الجوهريَّ في احتفاظ لغتنا بأصواتها ثابتة، وبأنسابها صريحة، وبحروفها واضحة))(٩). أما الأصوات التي أصابها نوع من التغير أو التبدل فإنها كانت تمثل طورًا من أطوار اللغة في أصل وضعها ثم خضعت لسنن التطور

الصوتي الطبيعي وقوانينه المتمثلة بالمماثلة والمخالفة والحمل على التوهم والإبدال والقلب المكاني والسهولة والتيسير(١٠)، وهو ما أفصحت عنه اكتشافات العلماء المحدثين وبراءات اختراعهم في مجال علوم الفيزياء والكيمياء وتقنيات الصوت من مختبرات متطورة وتشريح حنجري وتصوير شعاعي وتحليل طيفي للأصوات فباتت نتائج دراساتهم على قدر عالٍ من الدقة والوثاقة (١١).

المبحث الثاني: أثر التغيرات الاجتماعية في النظام اللغويّ العربيّ على مستوى الكتابة

عُنيَ نفرٌ من المثقفين العرب في العصر الحديث بالحضارة الغربية وافتتنوا بها لاسيما مَن تلمذ منهم للغربيين والمستشرقين، وترتب على ذلك تغيرات إجتماعية أفضت إلى أن يقلِّد العربُ الغربَ في ثقافتهم ولغاتهم ومناهج تعليمهم بدعوى التطوير والتجديد ومواكبة التقدم العلمي الكبير في نواحي الحياة المختلفة. والحقيقة أنَّ تلك المناهج التعليمية – لاسيما اللسانية منها- غريبة عن خصائص لغتنا العربية، بعيدة عن أنفاسها، يتعذر تطبيقها عليها؛ لأن لغتنا العربية قد امتلكت في ذاتها قوة خلودها وديمومتها؛ لكن ثمة أهدافا مشبوهة تقف وراء تلك الدعوات ترمي إلى إضعاف تمسك العرب والمسلمين بدينهم وعقيدتهم وأخلاقهم ولغتهم وتراثهم، وتشجيع التدريس على وفق النمط الغربي العلماني(١٢)، وفي هذا يقول أحد المبشِّرين: ((يجب أن نشجع المدارس ذات النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيرًا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن، حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الغربية)).(١٣) يقف في مقدمة هؤلاء الدعاة المستغربين العرب سلامة موسى الذي يقول: ((كلَّما زادت معرفتي بأوربا زاد حبي لها، وزاد شعوري بأنها منّي وأنا منها... فأنا كافرٌ بالشرق مؤمنٌ بالغرب)).(١٤)ويقترح استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربيّ جهرةً، عادًّا هذا السلوك رفعة نحو مستقبل مشرق لمصر والعرب، فيقول متسائلا: ((لماذا لا نجرؤ ونُقْدم على اصطناع الحروف اللاتينية؛ فنقتني بذلك ثقافة علمية ترفعنا باتساع آفاقها إلى مصاف الأمم العصرية فكرا ومادةً؟)).(١٥)لعمري إنّ محاولة استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية بدعوى التجديد محكوم عليها بالإخفاق والفشل، ذهب إلى هذا القول الدكتور صبحي الصالح مؤيدا قول المستشرق (شارل بيلا):((قد تجاوز بعض الناس الحقّ إلى الباطل، فاقترحوا استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية، ولكني أعتقد أن مثل هذا المشروع مكتوب عليه الفشل؛ لأن العربية غير التركية، وأيقنت أن الخط العربي سيدوم إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها))(١٦).

ويمضي الباحث سلامة موسى في مشروعه لتغريب العربية متذرعًا بعالمية الخط اللاتيني وسهولة تعلمه ومطاوعته الكبيرة في تحقيق التوحيد البشري، فيقول: ((اتخاذ الخط اللاتيني يحمل الأمة إلى الأمام مئات السنين، ويكسبها عقلية المتمدنين، ويجعل دراسة العلوم سهلة. وهي خطوة نحو الاتحاد البشري)).(١٧)وقد كفانا مؤونة الردّ عليه الدكتور حسام النعيمي الذي انتهى إلى ((أنَّ في اصطناع الرسم العربي ما يتفق وخصوصية لغتنا)).(١٨) وثمة دعوة محمومة أخرى إلى إصلاح الخط العربي باستعمال الحروف اللاتينية نادى بها لغويون عراقيون:(منير القاضي، ومتي عقراوي، وداود جلبي، وآخرون) بزعم وجود خلاف بين الرمز الكتابي وصوته العربي المسموع، وقد تكفَّل بالردِّ عليهم وتفنيد مزاعمهم الأستاذ الدكتور رشيد العبيدي(١٩).

يرى الباحث أن الكثير من المثقفين العرب قد أداروا ظهورهم للغة القرآن الكريم، واستبدلوا بها لغة أعجمية بفعل التغيرات الاجتماعية المرتبطة بخضوع بعض البلدان العربية للاحتلال الأجنبي المباشر، أو غير المباشر من خلال حملات الغزو الثقافي والإعلامي المغرضة الموجهة ضد دعائم تراثنا الفكري والثقافي واللغوي، إذ نرى شيوع تلك اللغة الأعجمية هذه الأيام في لغة الخطاب اليومي من مثل : off، sorry، good، yes، no، rest ok، course الخ، وفي هذا طمس يريده الأعاجم لمعالم هويتنا العربية وقطيعة للغة قرآننا، فلننتبه لأنفسنا وللغتنا قبل فوات الأوان، وهذا يحتم على المتخصصين باللغة العربية بذل المزيد من الجهد لإنارة عقول هؤلاء، وتبديد جهلهم بلغتهم، وتوعيتهم بما يحاك لها من دسائس تستهدف النيل من كتاب العربية الحافظ لها (القرآن الكريم)(٢٠).

ولعلّ من أشدّ حالات التشويه للحرف العربي وأكثرها سلبيَّة ما يشيع في عالمنا العربي المعاصر- ولاسيما في

عصر العولمة والربيع العربي المزعوم - من ازدواج لغويّ بين العربية واللاتينية، فبعد أن تحوَّل العالم إلى قرية صغيرة بفضل التقدم الهائل في عالم التكنولوجيا والانترنيت برزت في الاستعمال اللغويّ لغة هجينة تُدمَجُ فيها الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية في كلمة واحدة، من مثل قولهم: (سايتات) بمعنى مواقع، وهي صيغة جمع مزعوم لـ(sate) الإنجليزية، و(سلايدات) بمعنى شرائح، وهي صيغة جمع مزعوم لـ(slide) الإنجليزية، و(جيرات) بمعنى كراسي، وهي صيغة جمع مزعوم لـ(chair) الإنجليزية، و(بوليمرات) بمعنى المواد الكيميائية ذوات الوحدات المكررة، وهي صيغة جمع مزعوم لـ(polymer)، و(بولبرنات)، وهي صيغة جمع مزعوم لـ(bwlbrn) الإنجليزية...إلخ، بزيادة لاحقةِ جمعِ المؤنث السالم في العربية (الألف والتاء) على المفرد اللاتيني لتوليد صيغة الجمع الجديدة، فتولدت بذلك لغة هجينة نخشى أنَّ تشيع ويكثر استعمالها فتكون سببًا في اندثار ألفاظ عربية كثيرة من الاستعمال اللغوي فتؤول ألفاظا مماتة، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى سبر غور المعجمات العربية القديمة لنفض الغبار عما تزخر به من الألفاظ غير المستعملة وإعادة الحياة إليها بلطف الصنعة، وتصحيح نسبة بعض الألفاظ التي وصفتها المعجمات العربية القديمة بالمعرَّبة أو الدخيلة وذلك بإرجاعها إلى أصلها العربي، على وفق ما عمله الدكتور طه باقر في كتابه (من تراثنا اللغوي القديم ما يسمى في العربية بالدخيل).

وقد تركت تلك الدعوات ونظائرها آثارًا سلبية في النظام اللغويّ العربيّ، وفتحت الباب لدعوات هدّامة أخرى فيها خدش لجسد لغتنا الفصحى، منها الدعوة إلى إحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى، والتأليف بها، وهو ما دعا إليه المستغربون عيسى إسكندر المعلوف وطه حسين وسلامة موسى وسعيد عقل ويعقوب صروف وعبد العزيز فهمي ولويس عوض ولطفي السيد وأنيس فريحة وآخرون، وقد تكفل بالردِّ عليهم غير واحد من سدنة العربية المخلصين(٢١). لهذا ينبغي لعلماء العربية المخلصين والمجامع اللغوية العربية أن تأخذ دورها وتقوم بواجبها في الحفاظ على أصالة لغتنا وحرفها العربي ورصد المحاولات الهدامة التي تروم النيل منها وقبرها في مهدها قبل أن تستفحل، واعتماد منهجية علمية رصينة تستند إلى عوامل تنمية اللغة العربية لمواكبة التطور الحاصل في مختلف نواحي الحياة، وتوليد ما بالعربية المعاصرة حاجة إليه بالقياس والاشتقاق أو الاقتراض؛ على أننا لا نعدم من علمائنا المخلصين من وقف بوجه تلك الدعوات، وذاد عن العربية بجد وإخلاص، وعمل على تنميتها من غير إفراط ولا تفريط (٢٢).

المبحث الثالث: أثر التغيُّرات الاجتماعية في النظام اللغويّ العربيّ على مستوى الدلالة

يرى علماء اللغة أنَّ نوعًا من التغيّر والتطوّر يعتري بعض الألفاظ من حيث تخصيصُ دلالتِها أو تعميمُها أو تغيرُ مجالِ استعمالها، تقتضيه عوامل اجتماعية، وسياسية، وثقافية، واقتصادية، وذاتية تكمن في ذات اللغة، لعل من أبرزها الاستعمالات المجازية والاستعارية لمفردات اللغة الأصلية في معنى مستعار جديد يقتضيه موقف فني، أوفكرة، أوصورة أدبية، يدخل اللفظ في تكوينها ويقتضي استعماله في غير ما وضع له من معنى(٢٣). ويمكن معرفة الألفاظ التي انتقلت من دلالاتها اللغوية الخالصة إلى دلالة جديدة، والكشف عنها بسهولة ويسر فألفاظ: الإسلام والإيمان والصلاة والزكاة والعقيدة والدعوة وغيرها من ألفاظ التشريع الإسلامي جاءت على هذا النمط من التغير الدلالي تبعًا لظروف المجتمع الجديدة، وتغيّر منظومة العقل العربي القيمية، وانفتاحه على حياة جديدة ومعارف مستحدثة لم يألفها في البيئة السابقة(٢٤).

ويتجلى أثر التغيرات الاجتماعية في النظام اللغويّ العربيّ على مستوى الدلالة في مجموعة من الألفاظ والتراكيب من حيث تطور دلالتها، أو تغير مجال استعمالها بخروجها إلى معان جديدة، أو قريبة من الأصل، وفقا لقوانين التطور الدلالي وانتقال المعنى التي رصدها اللغويون العرب قدماء ومحدثون فقيدوها في كتبهم ونبَّهوا عليها (٢٥). وفيما يأتي تبيين لأثر تلك التغيرات في تطور دلالة بعض الألفاظ العربية.

أ. تخصيص الدلالة: هو نكوص أو تضييق يصيب الدلالة الكلية للفظ معين فينحسر معناه إلى الدلالة الجزئية ليدل على معنى أقل نتيجة إضافة بعض الملامح التمييزية له، مثل: تخصيص دلالة لفظي (المأتم) و(الطرب)، فالأول يعني في أصل وضعه اجتماع النساء والرجال في مناسبة مفرحة أو

محزنة، في الصحاح ((يقُولونُ : كنَّا في مَأْتَمِ فلانٍ، والصَّوابُ أَنْ يقالَ : كنَّا في مَناحَةِ فلانٍ))(٢٦). والثاني يعني ((خفة تعتري عند شدة الفرح أو الحزن والهمّ. وقيل: حلول الفرح وذهاب الحُزن))(٢٧). وبمرور الزمن ترك كلا اللفظين إحدى دلالتيه، ليستقر على دلالة واحدة هي المناسبة الحزينة في (المأتم) و(الخفة من السرور والفرح) في (الطرَب). وهذا تطور دلالي فيه تخصيص للمعنى وتضييق للدلالة. وكذا الأمر مع لفظ (الحج) الذي كان يدل في أصل الوضع على القصد إلى معظَّم مطلقًا، ثم خصَّص الإسلام دلالته ليدلَّ على القصد إلى بيت الله الحرام في وقت معلوم لأداء فريضة واجبة على كل مسلم مستطيع. والأمر نفسه يمكن أن نتلمسه في مجموعة ألفاظ أخرى من مثل الصلاة والزكاة والصوم والوضوء...إلخ، مما تخصصت دلالته بعد التغيرات الاجتماعية التي أصابت المنظومة القيمية للمجتمعات العربية التي دخلت في الإسلام، وهو تطور دلاليٌّ أفضى إلى تضييق في معنى هذه الألفاظ ودلالاتها.

ب. تعميم الدلالة: هو تغيير بتوسيع دلالة لفظ معين بإسقاط بعض الملامح التمييزية فيه بغية التيسير والتسهيل، من مثل لفظ (القافلة) الذي أطلق في أول وضعه مسمًّى على الرحلة الراجعة من السفر(٢٨)، وهو مأخوذ من الفعل(قفل) بمعنى رجع، فأصابه التطور الدلالي بالتوسيع والتعميم فصار يطلق في عربيتنا المعاصرة على الرفقة الذاهبة أو العائدة. وكذا الحال مع لفظة (البأس) فهي في الأصل كانت تطلق على الشدة في الحرب(٢٩)، فأصابها التطور الدلالي بالتعميم فأصبحت في عربيتنا المعاصرة تطلق على كل شدة. والأمر نفسه يمكن ملاحظته في ألفاظ (الورد) و(الرائد) و(البحر)...إلخ، مما توسعت دلالته اقتضاء للتغيرات الاجتماعية المفضية إلى التطور الدلاليّ.

ت. انتقال الدلالة : هو تغيير في مجال استعمال الكلمة بنقل دلالتها إلى دلالة أخرى ترتبط بالأولى بعلاقة الاستعارة أو المجاز المرسل اقتضاء للتغيرات الاجتماعية. ويذكر اللغويون أسبابًا وحالات كثيرة لتولد معان جديدة للألفاظ، مع ملاحظة نوع من العلاقات بين المعنيين، ومما انتقلت دلالته بعلاقة المشابهة(الاستعارة) لفظ (السيَّارة) الذي يدلُّ في أصل وضعه على القوم أو الجماعة السائرين؛ إذ يقال: ((رجل سيَّار، وقوم سيَّارة ، وساروا من بلد إلى بلد))(٣٠). ومنه قوله تعالى: ((يلتقطه بعض السَّيَّارة))(٣١)، يريد: بعض السائرين في الطريق. وقد تطورت دلالة هذا اللفظ بسبب تغير أحوال المجتمعات بعد عصر الصناعة ليدلَّ على آلة النقل المعروفة (السيَّارة)، والصلة بين هذه الآلة الحديثة، وإطلاق لفظة السيَّارة على جماعة السائرين، هو دلالة الفعل: (سار) ووجه الشبه بين القوم السائرين والآلة (السيَّارة) هو: حدث (السير)، أو كثرته استنادًا إلى ما تؤديه صيغة فعَّال من معنى التكثير والمبالغة. وكذا الحال في إطلاق لفظ (القطار) على الآلة المعروفة في عصرنا الحاضر، لوجود التشابه في الهيأة بين هذه الآلة وقطار الإبل، يقول الزمخشري:((ورأيت قِطارًا من الإبل وقُطُرًا، وإبلٌ مقطورة ومُقطَّرة، وهي مقطور بعضها إلى بعض))(٣٢). أما وجود لفظ(القطار) بدلالات أخرى، كأن يكون علما لموضع أو لبلد أو جمعا لقطرة، فذلك مندرج تحت مفهوم المشترك اللفظي، لأن صورة اللفظ واحدة مع اختلاف الدلالة(٣٣). ومثل ما تقدم من تغيّر في دلالة الألفاظ لتأثرها بالتغيرات الاجتماعية يمكن تلمسه في ألفاظ (البهيم) و(الصريم) و(المهر)... إلخ مما تغيرت دلالته بتغير الحياة والتقاليد الاجتماعية، واكتسب دلالة جديدة أكثر ارتباطا بتغيرات المجتمع وتحضره(٣٤).

أما ما نُقلَت دلالتُه بالمجاز المرسل، فهو كلُّ لفظ أو تركيب لا يقصد منه المعنى الحقيقي، بل المعنى الملازم للمعنى الحقيقي، إذ يكتسب اللفظ دلالة جديدة عندما ينتقل معناه إلى استعمال آخر يضفي عليه دلالة أخرى قريبة أو بعيدة من الأصل، من ذلك استعمال لفظ (العقيرة) بمعنى الصوت، وأصل استعمالها أن يقال: (رفع عقيرته) أي: رجله المعقورة، وعلاقة الصوت بالعقيرة أنَّ الذي عقرت رجله صاح بأعلى صوته من شدة ألم العقر، ومن ثم قيل: رفع عقيرته بالغناء، فتحولت الدلالة إلى صورة جديدة لا علاقة لها بالصورة القديمة(٣٥). ومنه قولهم:(فلان كثير الرماد)، فالمعنى اللغوي لكثير الرماد هو (كثرة مخلفات ناره)، والمعنى المجازي له أنه كناية عن:

(أنه جواد مضياف)؛ لأن كثرة الرماد تستلزم كثرة إشعال النار، وكثرة إشعال النار تستلزم كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تستلزم كثرة الآكلين، وكثرة الآكلين تستلزم كثرة الضيوف، وكثرة الضيوف تستلزم الجود والكرم والسخاء(٣٦).

ومن أمثلة المجاز المرسل أيضا التوسع في معنى اللفظ أو التخصيص، فلفظ (اللسان) و(الكلمة) و(الحرف)، كل منها تدل على وضع له في أصل اللغة، فاللسان العضو النطقي والكلمة والحرف، معروفتان، ولكن اطلاق (اللسان) على ممثل الدولة، أو الجماعة، أو المتحدث الرسمي عنهم(٣٧)، أو استعمال لفظ (الكلمة) بمعنى الخطبة أو (القصيدة)، واستعمال لفظ الحرف بمعنى (الآية القرآنية) أو (المادة اللغوية) من اسم أو فعل عند اللغويين ، كلّ ذلك يعني : توسيع دائرة دلالة اللفظ وخروجه من معناه الخاص إلى معنى أعمّ بطريقة المجاز المرسل اقتضاء للتغيرات الاجتماعية.

إنَّ هذه الكيفيات التي تغيرَّ فيها اللفظ من دلالة إلى أخرى اقتضتها تحولات اجتماعية، وظروف سياسية واقتصادية وجغرافية وحضارية، متعاقبة مرتّ بها الأمة في تاريخها الطويل، فتركت آثارها في اللغة التي هي وعاء يحفظ كل ما تخلّفه الأمة من تراث ثقافي وفكري وحضاري، فاللغة تحيا في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده وسلوك أفراده، وتتطور بتطوره وترقى برقيه وتنحط بانحطاطه؛ لأنها وثيقة الصلة بالإنسان وبيئته. وأن الذي بنا حاجة ماسة إليه هو وضع سياسة لغوية موحدة للعمل على تطوير النظام اللغوي العربي تحظى بقرار سياسي عربي مجمع عليه، يتولى تحديد إجراءاتها وآليات تنفيذها مكتب تنسيق التعريب والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الجامعة العربية واتحاد المجامع اللغوية العربية والجامعات ووزارات التربية والتعليم والثقافة والإعلام في البلدان العربية.

الخاتمة :

بعد هذه الرحلة الطيبة في دراسة أثر التغيرات الاجتماعية في النظام اللغوي العربيّ أضع بين يدي القارئ الكريم قطفًا من ثمار البحث وفوائده:

١. تُعَدُّ قضية تطور اللغات تبعا للتغيرات الاجتماعية واحدة من القضايا المهمة التي ماتزال موضع اهتمام العلماء المعاصرين الذين عدُّوا اللغة ظاهرة اجتماعية تتسم بدوام التحرك والتجدد، فطبيعة المجتمعات أنها تتغير باستمرار؛ إذ تأخذ الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة إرثها الثقافي والحضاري وتزيد عليه ما يمليه واقعها الاجتماعي وحاجاتها ومتطلباتها، ومن ثم فهذه التغيرات ألقت بظلالها على لغتنا العربية وأثرت فيها سلبا وإيجابا.

٢. إنَّ لغتنا العربية التي واكبت هذه التغيرات والتطورات، لم يُصِبْ جوهرَ نظامها العام شيءٌ من التغيُّر أو التبدُّل، فنظم الكلام فيها وتركيب جملها وصيغ أبنيتها باقٍ على أصوله، ولعلّ ما رُصِدَ فيها من تبدّل وتغيّر لا يعدو موضوعي الأصوات والدلالة وبنسبة ضئيلة تمتد إلى بضعة حروف من حيث التبدلات الصوتية كالقاف والضاد والجيم والطاء والهمزة، مثلما يمتد إلى مجموعة ألفاظ من حيث تطور دلالتها، أو خروجها إلى معان جديدة، أو قريبة من الأصل.

٣. ثمة دعوات مشبوهة نادى بها نفر من المستشرقين والمستغربين بتأثير العولمة والربيع العربي المزعوم ترمي إلى تغريب اللغة العربية وطمس هويتها وتحجيم دورها في توحيد الشعوب العربية والإسلامية، ترتب عليها تغيرات إجتماعية أفضت إلى أن يقلد العرب والمسلمون الغرب، وكان من نتائجها دعوات محمومة تدعو إلى إبدال الحرف الإنجليزيّ بالحرف العربيّ، لعلّ من أشدّها وأكثرها سلبيَّة ما يشيع من ازدواج لغويّ بين العربية واللاتينية، أدى إلى بروز لغة هجينة تُدمَجُ فيها الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية في كلمة واحدة، من مثل قولهم: (سايتات) بمعنى مواقع، وهي صيغة جمع مزعوم لكلمة(sate) الإنجليزية، و(سلايدات) بمعنى شرائح، وهي صيغة جمع مزعوم لكلمة(slide) الإنجليزية...إلخ.

٤. يرى الباحث أن الكثير من المثقفين والمتعلمين قد أداروا ظهورهم للغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر والكلام العربي الفصيح، واستبدلوا بها لغة أعجمية بتأثير الاحتلال المباشر لبعض البلدان العربية تارة وغير المباشر تارة أخرى، إذ نرى شيوع تلك اللغة الأعجمية هذه الأيام في لغة الخطاب اليومي من مثل :off، sorry، good، yes، no، rest

ok، course...الخ، وفي هذا طمس يريده الأعاجم لمعالم هويتنا العربية وقطيعة للغة قرآننا، فلننتبه لأنفسنا وللغتنا قبل فوات الأوان، وهذا يحتم على المتخصصين باللغة العربية بذل المزيد من الجهد لإنارة عقول هؤلاء، وتبديد جهلهم بلغتهم، وتوعيتهم بما يحاك لها من دسائس تستهدف النيل من كتاب العربية الحافظ لها (القرآن الكريم).

٥. لقد حفظت لنا المعجمات من ألفاظ لغتنا العربية ما يربو على ستة ملايين مفردة، إلا أنَّ المستعمل منها اليوم لايزيد على ستة آلاف كلمة، وهذا يعني أن هناك مخزونًا من مفرداتها يربو على خمسة ملايين كلمة في مفردات العلوم والآداب والفنون والثقافة في انتظار من يسبر غورها ويخرج مكنونها ويحسن تداولها، ويثريها بالمصطلحات العلمية والأدبية والتقنية والفنية بدلا من أن نفتح الباب على مصراعيه لدخول الألفاظ الأعجمية.

٦. ثمة وسائلُ وإجراءاتٌ لابدَّ من تفعيلها من أجل أن تواكب اللغة العربية نظائرها من اللغات الحيّة يستلزم تحققها التفكير بوسائل حيوية لتنمية اللغة العربية وتطويرها وتيسير تعليمها على الدارسين، منها :

أ. تأليف لجنة علمية من كبار أساتذة اللغة العربية في البلدان العربية وبإشراف مباشر من جامعة الدول العربية تتولى سنّ قانون (الحفاظ على سلامة اللغة العربية) يكون ملزما لجميع البلدان العربية ويُضَمَّنُ في دساتيرها لضمان تطبيقه تطبيقًا عمليًّا موحَّدًا.

ب. استحداث المناهج والوسائل الكفيلة بتوجيه هذا التغير ليكون موضوعيا ودقيقا يلبي طموح المجتمعات العربية المعاصرة ويحقق أهدافها في تعميق الفهم اللازم لهذه الظاهرة المهمة نحو إحداث تنمية لغوية حقيقية مقصودة على وفق خطة علمية مدروسة يضعها علماء متخصصون من ذوي الخبرة والدراية وتشرف على تطبيقها المجالس العلمية للغة العربية في البلدان العربية فضلا عن إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية.

ت. تفعيل عمل المجامع اللغوية العربية لتقوم بواجباتها تجاه لغة الضاد بما يضمن ديمومة حيويتها في مواكبة التطور العلمي والإنساني في جوانب الحياة المختلفة عبر استحداث الجديد اللغوي مما بالمجتمعات العربية المعاصرة حاجة إليه بوسائل التوليد المعروفة من اشتقاق أوقياس أوتعريب أونحت يقوم به المتخصصون بعلوم العربية ممن لهم تجربة غنية في هذا الميدان.

ث. سبر غور المعجمات العربية القديمة لنفض الغبار عما تزخر به من الألفاظ غير المستعملة وإعادة الحياة إليها بلطف الصنعة، وتصحيح نسبة بعض الألفاظ التي وصفتها المعجمات العربية القديمة بالمعرَّبة أو الدخيلة وذلك بإرجاعها إلى أصلها العربي وليكن ما عمله العلامة المرحوم الدكتور طه باقر في كتابه (من تراثنا اللغوي القديم ما يسمى في العربية بالدخيل) دليل عمل في هذا الميدان.

ج. أن نفرض وجود لغتنا عبر استعمالها في كل مكان ومحفل دوليّ تسنح لنا الفرصة بالتكلم بها؛ لأن اللغات تحيا وتزدهر بالاستعمال، وعلى العرب أن يغادروا الشعور بالنقص والدونية وهم يتكلمون بها، فالعربية أشرف لغات الأرض كونها لغة آخر كتاب سماوي تعهده الله جلَّ وعلا بالصون والحفظ.

ح. توظيف البرامج التلفازية لخدمة اللغة العربية بتشجيع اعتمادها العربية الفصحى أصلا في الحوار والنقاش وتبادل الآراء والترجمة ولاسيما في البرامج الموجهة إلى فئة الأطفال على غرار ما أُنتج في نهايات القرن المنصرم كبرنامج (افتح يا سمسم) وبرنامج (مدينة القواعد) وأفلام الكارتون المعرَّبة...إلخ؛ لأن التعلم في الصغر كالنقش في الحجر أثره دائم على مرِّ السنين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا المبعوث رحمة للعالمين

الهوامش والمراجع:

(١) التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، محمد الدقس، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، ١٩٨٧م:١٩.

(٢) ينظر: عناصر النظام اللغوي، اللغة العربية، د.نهى عفونة:١، نُشر على النيت بتاريخ ٢٠١٤/٨/١٠.

(٣) ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومنهاج البحث اللغويّ، د.رمضان عبد التواب:١٣١، وأبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية، د. رشيد العبيدي، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨م:٢٥-٦٤، والعربية والدرس الحديث، أ.د نعمة العزاوي، مجلة لغة الضاد،المجمع العلمي العراقي،١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م:١١٤-١٣١، والألسنية والبحث اللغوي العربي، د. رشيد العبيدي، مجلة لغة الضاد،المجمع العلمي العراقي،١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م:١٣٢- ١٦٣.

(٤) ينظر: اللغة، فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي والدكتور محمد القصاص، القاهرة، ١٩٥٠م:٦٤، والمدخل إلى علم اللغة ومنهاج البحث اللغويّ، د.رمضان عبد التواب:٢٢١-٢٢٥، وعلم الأصوات، د.كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م:٢٥٣-٢٩٤، والتطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، أخرجه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي للنشر،القاهرة، ط١٤٢٣،٤هـ-٢٠٠٣م:١٦-٢٠.

(٥) ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومنهاج البحث اللغويّ، د.رمضان عبد التواب:٦٢-٧٤.

(٦) ينظر: الفرق بين الضاد والظاء، لأبي بكرعبدالله بن علي الشيباني الموصلي(ت٧٩٧هـ)، تحقيق أ.د حاتم الضامن، دار البشائر للطباعة ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م:٦١-٦٦.

(٧) ينظر: أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م مادة (دقن): ١٩٢.

(٨) دراسات في فقه اللغة، د.صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣: ٢٨٦، وفقه اللغة وخصائص العربية – مازن المبارك، ط دار الفكر لبنان ١٩٦٠: ٣٨، وأبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية، د. رشيد العبيدي:٣٣٩.

(٩) دراسات في فقه اللغة، د.صبحي الصالح:٢٨٦.

(١٠) ينظر: مظاهر التطور في اللغة العربية المعاصرة، د.نعمة رحيم العزاوي، دارالشؤون الثقافية العامة، بغداد،ط١٩٩٠،١م:٥٠-٥٩.

(١١) ينظر: الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، مكتبة الشهباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٩م :١٨٨.

(١٢) ينظر: العولمة الثقافية واللغة العربية (التحديات والآثار)، محمد يوسف الهزايمة، الأكاديميون للنشر والتوزيع: ١٨٧.

(١٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٢م:٨٨، وغزو في الصميم، عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م:٤١.

(١٤) اليوم والغد، سلامة موسى، منشأة المعارف، ط٢، الإسكندرية، ١٩٦٦: ٤٣.

(١٥) البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى، مؤسسة هنداوي للثقافة، ٢٠١٢م: ١٣٨.

(١٦) دراسات في فقه اللغة، د.صبحي الصالح: ٣٥٥. وينظر: في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣:٢٦٨.

(١٧) البلاغة العصرية واللغة العربية:١٤٧.

(١٨) أصوات العربية بين التحول والثبات، أ.د حسام سعيد النعيمي: مطبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، سلسلة بيت الحكمة، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل١٩٨٩م :١٠١.

(١٩) ينظر بحثه: لماذا يدعون إلى تغيير الحرف العربي، د.رشيد العبيدي، مجلة لغة الضاد،١٤٠٩هـ-١٩٨٩م : ٣/ ٧٥.

(٢٠) ينظر: الروضات الحسان في حقلي اللغة واللسان، أ.د سعدون بن أحمد بن علي الرَّبّعيّ، دار الكتب العلمية، ١٤٣٧ه- ٢٠١٦م، ط١، بيروت، لبنان:١٦٢

(٢١) ينظر: الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي:٣٠٨-٣٠٩، وتراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، الدار العربية للعلوم- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م:١٤٨، ونحو وعي لغوي، مازن المبارك، مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٧٩ :٤٣، والعربية والدرس الحديث، أ.د نعمة رحيم العزاوي، مجلة لغة الضاد،المجمع العلمي العراقي،١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م:١١٤-١٣١. والعربية والأمن اللغوي، نظرة معاصرة، زهير غازي زاهد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،٢٠١١م:٧٨.

(٢٢) يقف في مقدمتهم العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، والأستاذ محمود محمد شاكر، والدكتور محمد العدناني، والدكتور رشيد عبد الرحمن العبيديّ والدكتور نعمة رحيم العزاويّ، والدكتور زهير غازي زاهد وآخرون.

(٢٣) ينظر: مظاهر التطور في اللغة العربية المعاصرة:١٨-١٩، والألسنية والبحث اللغوي العربي، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مجلة لغة الضاد،المجمع العلمي العراقي،١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م:١٦٣.

(٢٤) ينظر: دلالة الالفاظ، د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤م: ١٣٤-١٣٥.

(٢٥) ينظر: الخصائص:٢/٤٤٩-٤٥٨، والصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تح:أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت١٩٩٧ :١٥٠-١٥٢، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها،جلال الدين السيوطي، مكتبة القدس للنشروالتوزيع،١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م: ١/ ٢٥٠-٢٥٩، وفقه اللغة وخصائص العربية:١٢٠، ومظاهر التطور في اللغة العربية المعاصرة:١٨-١٩.

(٢٦) (الصحاح) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين،(أتم): ٤٨/١.

(٢٧) لسان العرب ؛ ابن منظور (ت٧١١هـ) دار صادر، ط١، بيروت ١٩٩٧، (طرب): ١٦٤/٤.

(٢٨) ينظر: لسان العرب (قفل) :٣٠١/٥.

(٢٩) ينظر: لسان العرب (بأس) :١٥٥/١.

(٣٠) أساس البلاغة (سير): ٣١٧.

(٣١) سورة يوسف :١٠.

(٣٢) أساس البلاغة (قطر): ٥١٢-٥١٣.

(٣٣) ينظر: المعجم العربي الأساسي، لاروس، ١٩٨٩،(قطر): ٩٩٥.

(٣٤) ينظر: أساس البلاغة (بهم):٥٦، و(صرم): ٣٥٤، و(مهر): ٦٠٨-٦٠٩.

(٣٥) ينظر: الخصائص:١/ ٢٤٩، وأساس البلاغة (عقر): ٤٢٩ -٤٣٠.

(٣٦) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (مختصر تلخيص المفتاح) للخطيب القزويني:١٨٤.

(٣٧) المعجم العربي الأساسي(لسن) :١٠٨٥.